

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني

"رؤية تأسيسية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية"

**The Early Manifestations of Travel Movements in Ottoman Algeria:
A Foundational Perspective on the Culture of Travel in the Medieval
Period and Its Implications for the Subsequent Historical Era.**

البشير بوقاعدة♦

المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر bougaadabachir@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2025/09/05 تاريخ القبول: 2026/01/20 تاريخ النشر: 2026/01/31

الملخص باللغة العربية:

تعكف هذه الورقية البحثية على استتباع مقومات الفكر الرحلاتي في جزائر العصر الوسيط ، ومعاينة منطلقاته وأسس ، والوقوف على طبيعة الروافد الثقافية التي تُغذيه ومشاربه المتلونة التي تطعمه. كما تسعى لإبراز نماذج عن مسارات حراكه ، وتحسّس موقعه في تدوين الرواية التاريخية التي تحتفظ بتاريخ الجزائر في العصر الوسيط ، هذا من جهة. ومن زاوية ثانية ، تسلط الضوء على مجريات تاريخ الفترة الانتقالية بين العصرين المؤطرين لتاريخ الجزائر في حقبتين مفصليتين وهما المغرب الأوسط في العهد الوسيط وجزائر العصر العثماني ، سعيا وراء تحديد مؤثرات النهضة الرحلاتية ونشاطها بالحقبة الأولى في تبلور الفكر الرحلاتي بالحقبة الموالية ، ومعاينة مظاهر تكاملية الجهد الرحلاتي بالحقبتين في تدوين تاريخ الجزائر والاحتفاظ برواياته. وقد توسلنا في مسار إنجاز هذه الدراسة بالمنهجين الوصفي والتحليلي بشكل أساس لمعالجة إشكالياتها المطروحة ونسج مقارباتها ، في ضوء ما احتفظت به لنا المادة المصدرية من أخبار ورؤى.

الكلمات المفتاحية: ثقافة الرحلة ؛ المنطلقات ؛ العصر الوسيط ؛ العهد العثماني.

Abstract

This research paper endeavors to trace the constituent elements of travel thought in Medieval Algeria, examining its origins and foundations, as well as the cultural sources that nourished it and the diverse influences that enriched its development. It also seeks to highlight prominent models of its trajectories and to assess its role in shaping the historical narrative that has preserved accounts of Algeria during the medieval period. From another perspective, the study sheds light on the historical dynamics of the transitional phase between two

♦ المؤلف المرسل

pivotal epochs in Algerian history—namely, the medieval era and the Ottoman period—in an effort to identify the impact of medieval travel activity on the formation of travel thought in the subsequent period. Furthermore, it explores the complementary aspects of travel writing across the two eras in documenting Algeria's history and safeguarding its narratives.

In conducting this study, we have primarily employed both descriptive and analytical methodologies to address the central research problem and to weave its comparative insights, drawing upon the reports and perspectives preserved in the source materials.

Keywords: Travel Culture, Foundations, Medieval Era, Ottoman Period.

مقدمة:

تنطلق هذه الورقة البحثية من أساس تاريخي مفاده: أن دراسة تاريخ حقبة زمنية معينة يظلّ مبتورا إذا لم يُمدَّ بجسور متينة إلى الحقبة التي سبقتها، ولاسيما إن تعلّق الأمر بأحداث نفس الحقل البحثي، وحيثيات ذات الاشكالية التاريخية.

استئناسا بهذه الرؤية، نشير إلى أنّه كثيرا ما صادفتنا قضايا تاريخية تمتّ بصلة إلى حقبة زمنية معينة لكنها لا تنفصم عن التي سبقتها لاسيما اعتبارا بمناباتها وأصولها وتاريخيتها، ومن ذلك قضايا تاريخ الجزائر الثقافي عبر عصورها المتناسلة. وفي هذا الصدد استفزت انتباهنا اشكالية بحثية تتعلق بمسألة الفكر الرحلاتي -على تعدّد غايات الرحلة ومآرب من سلك سبيلها وبالأخص في أوساط شريحة النخب-بالجزائر على امتداد مساحة زمنية تجمع حقبتين زمنيّتين متتاليتين وهما المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط وجزائر العهد العثماني؛ باعتبار واقع في الحقبة الثانية يمثّل استمرارية لثقافة الرحلة التي اصطبغت بها حياة ساكنة الحقبة الأولى، ومظاهره في الحقبة الأولى وتجلياته وأبعاده تعكس أصول تلك الثقافة الرحلاتية ومناباتها.

اشكالية الدراسة:

تأسيسا على ما سبق، نروم في متن هذه الورقة البحثية استتباع مقومات الفكر الرحلاتي بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، ومنطلقاته وطبيعة الروافد الثقافية التي تُغذيه، وأبرز مسارات حراكه، وموقعه في تدوين الرواية التاريخية التي تحتفظ بتاريخ الجزائر الثقافي في العصر الوسيط، هذا من جهة. ومن زاوية ثانية، نحاول تسليط الضوء على مجريات تاريخ الفترة الانتقالية بين العصرين المؤطرين لتاريخ الجزائر في حقبتين مفصليتين: وهما العصر الوسيط والعهد العثماني، سعيا وراء تحديد مؤثرات النهضة الرحلاتية ونشاطها بالحقبة الأولى في تبلور الفكر الرحلاتي بالحقبة الموالية، ومعاينة مظاهر تكاملية الجهد الرحلاتي بالحقبتين في تدوين تاريخ الجزائر الثقافي والاحتفاظ برواياته.

أهداف الدراسة:

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية

تهدف الدراسة بشكل أساسي إلى مباحثة تداعيات الفكر الرحلاتي لحقبة زمنية معينة من تاريخ الجزائر على التي تليها ، ومعينة مدى استمرارية ثقافة معينة أو فكر سائد في فترة بالتي تليها ؛ لكونه يعكس في حدود ما نعتقد- الإرث الثقافي المتوارث ، ذلك الذي يتغذى من نفس المشكاة ، ويتفاعل مع معطيات تاريخية تعكس ذات الهوية ، وينطق بمسار تطور آلياته وأدواته ، وطبيعة تظاهراته ، وحركية وتناسل مخرجاته بمختلف أبعادها.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في كونها تنزوي لمعالجة إشكالية مواطن التفاعل ضمن مسارات تطور الظاهرة التاريخية ، وجسور التواصل التي تربط مسارات مكوناتها ، وتحدد في ضوئها خطوطها وتجلياتها.

1. الفعل الرحلاتي بالمغرب الأوسط بين طلائع الحراك ومسارات التطور:

1.1 مظاهر التواصل الاجتماعي:

حرص أهل المغرب الأوسط (الجزائر) عبر تاريخه المترامي على المسافة الزمنية المؤطرة للعصر الوسيط على ملازمة الحراك الرحلاتي داخل بلاد المغارب وخارجها ، على اختلاف غاياته ومنطلقات منتحليه ؛ سواء في مسعى أداء فريضة الحج كغاية عظمى باعتباره ركنا من أركان الاسلام ، أو في سبيل الاستزادة من روافد العلم وبنابيع المعرفة والاحتكاك بأهل العلم وأقطابه ، والتواصل مع صنّاع المعرفة في شتى فنونها ومختلف حواضرها ومراكزها ، وقد قيل بما يشفع في هذا المنحى: أن من بين ما يُدرك به العلم: "الرحلة والسفر" ، بالإضافة إلى مطالب من نشد تنمية تجارته وتحصيل المنافع الاقتصادية.

مع الإشارة إلى أنّ حركة الرحلة إلى البلاد الشرقية قد اكتست في بداية أمرها طابعا دينيا أكثر من كونها ثقافة شعبية تعكس تعدّد المقاصد والغايات مثلما أصبح عليه الحال عند الجيل اللاحق. بما يعني أنّ الحج أو أداء الفرض الديني كان المحرك الأساس والغالب بنسبة جدّ عالية للمسير والتحرك إلى المشرق ، وكان الحجاج يستغلّون تلك السانحة في طلب مراميمهم الأخرى التجارية أو أداء الفرض الثقافي/العلمي.

ومن الملاحظ اللامعة التي يحسن التنويه بها في مطلع هذه الدراسة ، بما يخدم هذه الطارحة ويتناغم ومقصدا من مفاحصتها:

- أنّ تناول طلائع الحراك الرحلاتي ببلاد المغرب الأوسط وتحديد بداياته الأولى وجذورها ، لا يمكن بمعزل عن بلاد الغرب الاسلامي بشكل عام ؛ ذلك أنّ شخصية المغرب الأوسط السياسية لم تبرز إلى السطح بصورة معلنة إلا تزامنا ومظاهر الانفصال عن مركز الخلافة الاسلامية بالمشرق خلال النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة (808م) ، وتحديدًا تزامنا وقيام دولة بني رستم بالحاضرة التاهرتية مع مطلع العقد السابع من نفس القرن المذكور. وأنّ جغرافية المغرب الأوسط مثّلت قبل ذلك التاريخ جزءا لا يتجزأ من مجال البلاد الاسلامية المترامية بين صعيد مصر شرقا وسواحل المحيط الأطلسي غربا ؛ تداخلت أحداثه السياسية والثقافية والدينية مع النسيج العام ،

البشير بوقاعة

وتقاطعت مجرياتها في مفاصل متعدّدة من وقائعها؛ ناطقة بالتاريخ المشترك لهذا الإقليم والتمفصل اللافت للأحداث، والانتماء للمجال نفس والجغرافية أو المُعبر عن الشخصية المندمجة قبل تذبذب العلاقة مع القيادة المركزية ببغداد العباسية، وبروز ضروب الانفصال ببلاد الغرب الاسلامي، ومظاهر الاستقلال السياسي والحكم المحلي¹.

ناهيك عن الشخّ الخيري الذي اصطبغ به النص المصدري حيال أحداث الحراك الرحلاتي للنخب العالمية أو طلبة العلم ورواد بيت الله الحرام لأداء الفريضة وزيارة الأمان المقدسة والمعالم الاسلامية والحضارية خاصة خلال القرون الأربعة الأولى من تاريخ المغرب الأوسط في العهد الوسيط، عدا ذلك النزر اليسير من الروايات التي ألمحت إليها بعض المظان المصدريه لاسيما كتب الطبقات والتراجم والسير والتي لم تعلن رواياتها بما فيه الكفاية عن الشخصية الجغرافية والإقليمية للعناصر المرتحلة والمتنقلة بين حواضر المغرب فيما بينها أو بينها وبين الحواضر المشرقية. ومصادق ذلك كما عبّر عنه أحد الباحثين: أنّ القاضي -على سبيل المثال لا الحصر- يمكن أن ينبت من تربة تونسية، ويتعلّم في فضاء أندلسي، ويستقضي بحواضر المغرب الأوسط، ليتحول إلى مجالس الإفتاء بالمغرب الأقصى، ثمّ يتصدّر القضاء بتونس، ويبلغ إشعاعه العلمي أقاصي الصحراء الكبرى ويغوص في قلب بلاد السودان ويذيع في حواضر المشرق².

- نبتت رغبة الرحلة في نفوس أهل المغرب الأوسط في العصر الوسيط مع بدايات الوجود الاسلامي بالمنطقة، واقتترنت بصفة وثيقة بأداء فريضة الحج كمقصد أول ورئيس. ثمّ أخذت فروع شجرة الرغبة وأغصانها في نفوسهم تتفرّع وتتعدّد؛ جامعة بين أداء الفريضة وزيارة الأماكن المقدسة، والتبحر في دروب العلم والاستزادة من فنونه، وطلباً للإجازة³ ولعلو السند "في الأحاديث والآثار التي كانوا يروونها، والكتب التي كانوا يتلقونها"⁴، فضلا عن الرحلة لوجه الانتفاع المادي على كاهل التجارة والمعاملات الاقتصادية.

1 بن معمر محمد، رحلات الحج من المغرب الأوسط إلى مكة المكرمة، مجلة الحضارة الاسلامية، المجلد 18، العدد الأول، وهران، الجزائر، 1439هـ/2017م، ص278.

2 وهو ما أشار إليه الباحث: محمد بن معمر نقلا عن ابراهيم التارزي في كتابه "رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة". راجع: بن معمر، المرجع السابق، ص278.

3 حميدانو علي، أدب الرحلة من السيرة الذاتية إلى المتخيل قراءة في رحلة ابن حمادوش، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع14، ج1، جامعة الوادي، الجزائر، 2018، ص08.

4 الناجي لمين، رحلات علماء المغريين الأقصى والأوسط الملكية وآثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1437هـ/2016م، ص05، 19. ومن الذين اشتهروا بالمغرب الأوسط في العصر الوسيط بالحرص على طلب علو السند وحصلوا ذلك كما يذكره الغبريني في كتابه عنوان الدراية: الشيخ الفقيه على بن أبي نصر فتح بن عبد الله المتوفى سنة 752هـ؛ حيث ذكر أنه كان يروي، ويُسمع، ويُتفقّه عليه، "وله علو سند في الحديث". الغبريني أبو العباس أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح، عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979، ص137. راجع كذلك: الناجي، المرجع السابق، ص23.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية-

- طالعنا مصنفات التراجم والسير والطبقات على بعض العينات من أهل العلم الذين شدوا الرحال من المغرب الأوسط بشكل فردي أو جماعي ، قاصدين مختلف أصقاع العالم الاسلامي وعلى رأسها مكة المكرمة ، ينشدون مطالبهم المتلونة ، ويلتمسون غاياتهم المتعددة. وفي الوقت الذي لا يسعنا القيام بعملية إحصائية ترصد كافة العينات الناطقة بواقع الرحلة في الفترة مدار الدرس ، نعتقد أنّ يحسن بنا الاقتصار على نماذج منتخبة في ضوء ما أشار إليهم النص المصدري ، لبسط صورة ولو مصغرة عن ذلك الواقع ، وهو ما يضطلع الجدول الموالي :

القرن	الرحالة	تاريخ الوفاة	الوجهة	الغاية	المصدر
القرن 7هـ	أبو زكريا يحيى الزواوي	ت611هـ	المشرق	الحج والعلم	عنوان الدراية ، ص127.
	علي بن أبي نصر البجائي	ت652هـ	المشرق	الحج والعلم	عنوان الدراية ، ص137.
	عبد الحق الأنصاري	ت675هـ	افريقية والمشرق	الحج والعلم	عنوان الدراية ، ص60.
	أبو زكريا بن محجوبة	ت677هـ	المشرق	الحج والعلم	عنوان الدراية ، ص103.
	أبو العباس أحمد الغماري	ت682هـ	افريقية والمشرق	الحج والعلم	عنوان الدراية ، ص93.
	أبو العباس أحمد الملياني	ت682هـ	المشرق والمغرب	الحج والعلم	عنوان الدراية ، ص188.
	أبو العباس أحمد الأنصاري	ت693هـ	افريقية والمغرب	العلم	عنوان الدراية ، ص119.
القرن 8هـ	محمد المقرئ التلمساني	ت759هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	نفح الطيب ، ج1 ، ص7.
	أحمد الغبريني	ت714هـ	الغرب الاسلامي	العلم	عنوان الدراية ، ص10-15.

البشير بوقاعدة

أبو علي الزواوي المشدالي	ت741هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	عنوان الدراية ، ص103.
ابن عمر البجائي التنسي	ت740هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	نيل الابتهاج ، ص94.
أبو زيد عبد الرحمن التنسي	ت743هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	نيل الابتهاج ، ص245.
أبو موسى عيسى	ت749هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	نيل الابتهاج ، ص355.
أبو عبد الله محمد الأبلي	ت757هـ	المشرق وفاس	الحج والعلم	البستان ، ص215.
محمد المقرري	ت758هـ	المشرق وافريقية	الحج والعلم	البستان ، ص155.
أبو عبد الله الشريف	ت771هـ	تونس	العلم	البستان ، ص165.
ابن مرزوق الخطيب	ت781هـ	المشرق والأندلس	الحج والعلم	البستان ، ص184.
عبد الله الشريف الحسني	ت792هـ	الأندلس	العلم	البستان ، ص117.
أبو زيد عبد الرحمن	ت797هـ	تونس والمشرق	الحج والعلم	نيل الابتهاج ، ص245.
ابراهيم بن يخلف التلمساني	ق8هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	البستان ، ص66.
محمد بن سليمان النجار	ق8هـ	الأندلس	العلم	البستان ، ص294.
ابراهيم التلمساني	ت804هـ	المغرب الأقصى	العلم	البستان ، ص66.
ابن مرزوق الحفيد	ت842هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	غنيمة الوافد ، ص10.
محمد بن عمر الهواري	ت843هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	روضة النسرين ، ص42.
أحمد بن زاغو	ت845هـ	المشرق	الحج والعلم	البستان ، ص42.

القرن
9هـ

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية -

التلمساني		والغرب		
أبو الفضل التلمساني	ت845هـ	المشرق وأفريقية	الحج والعلم	البستان ، ص42.
محمد الشريف	ت847هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	البستان ، ص117.
قاسم بن سعيد العقباني	ت854هـ	المشرق	الحج والعلم	البستان ، ص148.
الحسن أبركان التلمساني	ت857هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	روضة النسرين ، ص116.
أبو الفضل المشدالي	ت864هـ	أفريقية والمشرق	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، ص121.
إبراهيم التازي نزيل وهران	ت866هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	روضة النسرين ، ص139.
أحمد بن الحسن الغماري	ت874هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	روضة النسرين ، ص193.
عبد الرحمن الثعالبي	ت875هـ	أفريقية والمشرق	الحج والعلم	غنيمة الوافد ، ص9.
القرن 10هـ	ت901هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	روضة النسرين ، ص69.
ابن مرزوق الكفيف	ت901هـ	المشرق	الحج والعلم	البستان ، ص251.
أحمد الونشريسي	ت914هـ	المغرب الأقصى	العلم	المعيار ، ج1 ، ص10.
محمد بن أحمد بن مرزوق	918هـ	المغرب الأقصى	العلم	البستان ، ص258.
عيسى بن محمد البطيوي	1033هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي ، ج2 ، ص121.
القرن 11هـ	1041هـ	المشرق والمغرب	الحج والعلم	نفح الطيب ، ج1 ، ص39.

البشير بوقاعة

		ب		
سعيد قدورة	1066هـ	الغرب الاسلام ي	العلم	تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص 104.
عبد الكريم الفكون	1073هـ	المشرق وافريقية	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، ص 519.
عاشور القسنطيني	1074هـ	المشرق والغرب	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص 383.
يحيى الشاوي	1095هـ	المشرق وافريقية	الحج والعلم	تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص 102.

جدول رقم 01: يمثل توزيع عينات من النخب المرتحلة بالجزائر بين القرنين 7 و11هـ / 13-17م.
التعليق على الجدول:

قادنا الرصد الاحصائي إلى تسجيل الملاحظات الموالية:

- انطلاقا من صعوبة الوقوف على إحصاء دقيق لعدد العينات التي ارتحلت من المغرب الأوسط - على اختلاف غايات خروجها- على امتداد المسافة الزمنية المؤطرة للعصر الوسيط مصداقا لما عبّر عنه صاحب نفح الطيب بقوله: "إن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال"⁵، نرى بأنه يجدر للتنبيه بأن مقصدنا من إيراد هذا الجدول يكمن في كونه محاولة لترصد مسارات نشاط الحراك الرحلاتي ببساط المغرب الأوسط بين القرنين السابع والحادي عشر الهجريين ، بهدف ملاحقة العوامل التي أسهمت في نموه من جهة ، وشكلت من جهة أخرى ، عقبات أثّرت على مساراته وخطوطه ومسيرة نموه. وذلك عسانا نهتدي إلى رؤية حيال ثقافة الرحلة بالمجال المدروس ، وانعكاساتها على الحياة العلمية والثقافية به. ومن ثمّ تحديد نقاط التماس بين الحقتين التاريخيتين لنفس المجال تحت حكم كيانات العصر الوسيط خاصة العهد الزياني ، والعهد العثماني الموالي لاسيما في بداياته.

- بناءً على المعطيات التي يحتضنها الجدول من معطيات ، نشير إلى أننا أحصينا زهاء أربعة وأربعين (44) شخصية رحالة خرجت من المغرب الأوسط تنشد غايات متلوّنة وتتشوف مقاصد متعددة ، بيد أنّ مقصد طلب العلم كان سمة لامعة في جبين كل منها. كما إنّ غالبية أولئك

5 المقري أحمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح ، إحسان عباس ، ج 1 ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1388هـ / 1968م.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية

الرحالة قرنوا غاية العلم بمنظومة غائية أخرى تصدّرها واجب أداء الفرض الديني وما اتصل به من زيارة الأماكن المقدسة.

- توزعت عينات الجدول على مدار القرون المنتخبة على النحو الموالي: احتضن القرن السابع ثمان (8) عينات ، في حين نطق القرن الثامن بأربعة عشر (14) عيّنة ، أمّا التاسع فتضمن اثنا عشر (12) عينة ، وكشف القرن العاشر عن أربع (4) شخصيات (عينات) ، وأخيرا تم رصد خلال القرن الحادي عشر ستة (6) شخصيات أو عينات.

وقد توزعت هذه العينات حسب الوجهة على النحو الذي يوضحه الجدول الموالي:

الوجهة	المشرق والغرب الاسلامي	المشرق والأندلس	الغرب الاسلامي	المشرق	المشرق والمغرب	المشرق وافريقية	افريقية	المغرب ب	الأندلس	افريقية والمغرب
العدد	09	02	02	05	10	09	01	03	02	01

جدول رقم 02: يمثل توزيع عينات من نخب العلم حسب الوجهات الرحلاتية التي قصدتها.

- نلفت الانتباه إلى أنّ إطار الجدول الزمني ضمّ ثلاث قرون من حقبة العصر الوسيط بالمغرب الأوسط بالإضافة إلى القرنين العاشر والحادي الذين يمثلان بدايات الوجود العثماني بالجزائر أو طلائع الجزائر العثمانية. مع الإشارة إلى أنّ القرن العاشر الهجري يمثل قاسما مشتركا بين الحقبين ؛ على اعتبار أنّ التبعية للدولة العثمانية كانت خلال العقد الثالث من القرن السادس عشر الميلادي ، وأنّ سقوط الدولة الزيانية كان خلال العقد السابع من نفس القرن ؛ أي سنة 962هـ / 1554م.

- اصطبغت الفترة الزمنية الممتدة على مدار القرون الهجرية الخاضعة للمدارسة بنوع من التذبذب والتراجع في الحراك الرحلاتي ، وأحيانا الانقطاع تماما عن الرحلة ، وذلك راجع إلى سيادة الاضطرابات العسكرية ، وغياب الأمن في المسالك ومناطق العبور. ومن ذلك أنّه في العهد الحمادي زمن الهجرة الهلالية وما أعقبها من ضروب الإفساد التي ألحقوها بمجاله خلال القرن 5هـ / 11م تضرّرت حركة الرحلة بشكل ملحوظ وتذبذبت مساراتها وانقطعت خلال سنوات معينة ووجهات محدّدة. ومع أنّ خطوط الرحلة من حواضر المغرب الأوسط ومراكزه إلى غيرها من حواضر العالم الاسلامي قد عرفت انتعاشا لافتا خلال العهد الموحيدي ونموا لامعا ، إلا أنّ فترة التنافس على الملك الموحيدي من قبل ورثته (الدول الثلاث) مثّلت فترة عصيبة أعاققت مسار ذلك النمو وأثّرت سلبا على مسار حركيته ، وخاصة خلال العهد الزياني ؛ والذي وبالرغم من النشاط الرحلاتي المتميز الذي كان سمة هذه الحقبة إلا أنّ عصر هذه الدولة لم يخل هو الآخر ، من ضروب الاضطراب التي نفصت على أهل العلم وضيقّت في وجوههم السبل ، وأعاقّت طريقهم لوجه العلم ، وحتى لأداء الفريضة ؛ بسبب التوتر الذي خيّم على مسار العلاقة بينها وبين الدولتين الجارتين: الحفصية والمرينية ؛ وخاصة الأخيرة. وهو ما تعكسه معاناة الساكنة التلمسانية على مدار سنوات الحصار المريني لها على امتداد مسافة زمنية تربو عن سبع سنوات

البشيرة بقاعدة

(698-706هـ)⁶؛ أين انقطعت السبل ، وضاعت الأمور واشتدت الأحوال فأحجم أهل العلم وطلبته وحتى أصحاب المنافع الاقتصادية عن الحراك والتنقل نشدا لغاياتهم ، وأوقفوا مشاريعهم بشكل مؤقت .

- الجمع بين الرحلة لطلب العلم وأداء مناسك الحج كان سمة لافتة جدا من خلال العينات المذكورة ؛ فالحج وطلب العلم كما قيل كانا وجهين لعملة واحدة⁷.

- توسع منحى الرحلة أفقيا وعموديا ؛ راسما في منحا العمودي: تطور الحراك الرحلاتي وانتعاشه ، ورسوخه كثقافة شعبية في المتخيل المجتمعي الجزائري. أمّا أفقيا: فمن خلال انتشار خطابه جغرافيا في مجالات المغرب الأوسط وأقاليمه ، وتوسّعه في أعماق النسيج المجتمعي وبين ظهرانیه.

- كانت حدود دائرة مجالات الرحلة واسعة ؛ ففي الغالب ما كانت وجهة الرحالة تقتصر على زيارة حاضرة واحدة بالإقليم الذي ينشده ، بل ولا تقتصر أيضا على قصد إقليم واحد بل كان الرحالة يتجول في حواضر المشرق والغرب الاسلامي انتقالا من محطة لأخرى ومن إقليم لغيره حسب الحاجة أو المبتغى .

ومما سجّلناه كذلك في هذا المنحى ، أنّ حواضر المشرق كانت أكثر استقطابا لرحالة بلاد المغرب الأوسط من غيرها من أقاليم الغرب الاسلامي ، بناءً على ما تنطق به العينات وتشهد به المظان المصدرية خاصة خلال القرون الخمسة الأولى من العصر الوسيط ، ثمّ تليها بلاد افريقية بحكم أنّها محطة عبور لهذه الوجهة ، ومسلكا أساسيا نحوها .

ولا بأس من التنبيه في هذا الصدد ، إلى أحد أبرز الدوافع الكامنة في توجيه النظر بشكل بارز إلى هذه الوجهة (الجهة الشرقية) ؛ وذلك أنّ مقومات المعرفة بالمغرب الأوسط لا تشعب أحيانا بما يكفي حاجة طلبة العلم أو لا ترضي رغباتهم المعرفية بالقدر المنشود في بعض مناحيها . حيث أنّه وبعبدا عن التقليل من شأن المجال المغرب أوسطي بصفة خاصة والغرب الاسلامي بصفة عامة ثقافيا وعلميا خلال العصر الوسيط اعتبارا بمظاهر النهضة العلمية الحيوية التي عرفها والنمو المعرفي اللافت الذي شهده بشكل مستمر وصورة متنامية على مدار المسافة الزمنية المؤطرة للعهد الوسيط ، ظلّ المشرق بحواضره الثقافية اللامعة ، ومراكزه العلمية المشعّة ، ومعالمه الدينية المقدسة ، أحد أبرز مواطن الاستقطاب للنخب العلمية ، وطلبة العلم ومتشوفي

6 مع الإشارة إلا أنّ توقف نشاط الرحلة كان متعلقا بالساكنة التلمسانية فحسب ؛ ذلك أنّ السلطة المرينية التي فرضت حصارها المحكم على تلمسان وطوقت عنقها بسوار جيوشها وقواتها العسكرية المرابطة على أسوارها ، كانت تشرف على تنظيم مواكب الحج انطلاقا من مدينة المنصورة التي شيّدها مع بدايات سنوات الحصار .

7 بن معمر ، المرجع السابق ، ص286 ، شريخي نبيل ، الحج في مجتمع المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين بين مشقة الرحلة والشوق إلى المقصد ، مجلة مدارات تاريخية ، مج2 ، ع5 ، الجزائر ، 2020 ، ص271 .

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية⁸

المعرفة. ذلك أنهم ومع ما ينهلونه بمراكز العلم بمجال مسقط رأسهم ، وعلى يد أساطين العلم به وأقطاب شيوخه وقاماته الشامخة ، لا يتوقف طموحهم العلمي عند ذلك الحد ، ولا تشبع نفوسهم مما حصلت على غزائره ، بل تظل رحالهم مشدودة إلى غيره من حواضر العلم ببلاد المغرب أو المشرق ، رغبة في الاستزادة وأملا في إشباع الفضول ، وإرضاء الرغبة في إنماء المعارف وتطوير القدرات والاطلاع على ثقافة الآخر والاستئناس بما جادت به القرائح في شتى مجالات العلم والمعرفة بألمع الحواضر المشرقية خاصة مكة المكرمة⁸.

1.2. خطوط ومسار رحلة أهل المغرب الأوسط:

نحاول في هذه المحطة من البحث تحديد خطوط الرحلة ورسم مساراتها انطلاقا من المغرب الأوسط نحو الوجهات المنشودة. ومن خلال ما تمّ الوقوف عليه من نصوص ، أخبار أشارت إلى تلك الوجهات وألمعت النظر إلى المسارات ، رأينا أن نحصرها في أربع وجهات ، كما يضطلع به العرض الموالي:

1.2.1. الرحلة نحو البلاد المشرقية:

جمعت الرحلة إلى هذه الوجهة بين جميع مقاصدها وغايات أصحابها: الدينية والعلمية والاقتصادية. ومثل هذا الاتجاه المقصد الرئيس لشريحة عريضة من نخب العلم وطلبته بالمغرب الأوسط⁹ ، والوجهة المفضلة لهم لتحقيق المهراد ، وملامسة الهدف المنشود. فلا تكاد تقف على طالب علم ارتحل ينشد غايته العلمية إلا وكانت بلاد المشرق محطة أساسية ولّي وجهه شطرها واشترأت عنقه صوبها ، وقد أشرنا سلفا وفي محطات متعدّدة من جسم دراستنا هذه إلى مقومات الجذب التي يحوزها هذا الإقليم ؛ بما أهله ليحظى بهذه الأولوية في ترتيب وجهات أصحاب الرحلة من أهل المغرب الأوسط بشكل خاص أو الغرب الاسلامي بشكل عام.

ولو نظرنا إلى عدد الرحلات التي قصد أصحابها المشرق في ضوء الاحصاء الذي أوردناه في الجدول السابق ، لوقفنا على أنّ زهاء أربعة وثلاثين (34) شخصية علمية من أصل أربع وأربعين (44) كانت وجهتها حواضر المشرق للاستزادة في العلم والرغبة في أداء الفرض الديني ؛ أي بنسبة حوالي 77 بالمائة من مجموع العينات التي انتخبناها للمعينة ضمن الجدول الأول. وقد فصلّنا في الجدول بشأن عدد العينات التي ارتحلت إلى المشرق كوجهة منفردة عن غيرها من الوجهات ، وذكرنا بأنّ عددها بلغ خمس (05) شخصيات ، في الوقت الذي جمعت الشخصيات الباقية من أصل أربعة وثلاثين (34) بين المشرق كوجهة رئيسة وبين الوجهات الأخرى المتلونة ، على النحو الموالي: ثمانية (8) شخصيات جمعت في وجهتها بين المشرق والغرب الاسلامي بشتى حواضره ،

8 بن معمر ، المرجع السابق ، ص278.

9 بوسلامة محمد ، هجرة الجزائريين إلى بلاد المشرق في العهد العثماني "1830-1518" ، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية ، مج 2 ، ع 1 ، جامعة ابن خلدون ، تيارت ، الجزائر ، 2019 ، ص327.

البشير بوقاعة

وإحدى عشر (11) شخصية كانت وجهتها متزاوجة بين المشرق والمغرب الأقصى ، وتسع (9) شخصيات جمعت بين الرحلة إلى المشرق وإفريقية.

وطبيعي أن تحتل مكة صدارة الحواضر المشرقية التي تُشدّ إليها الرحال ، وتحوز حصة الأسد من رحلات أهل المغرب الأوسط إليها. ثمّ تليها الحواضر المشرقية التي تثوي مقدسات ومعالم دينية على جغرافيتها كالمدينة المنورة والقدس¹⁰ ، وكذا الحواضر الواقعة على طريق الرحلة إلى الحجاز كمصر وحواضر إفريقية ، ثمّ تليها ترتيبا الحواضر المشرقية البارزة في العلم كبغداد والبصرة¹¹.

2.2.1 الرحلة باتجاه إفريقية:

تتعدّد مراكز انطلاق الرحلة من حواضر المغرب الأوسط باتجاه إفريقية ، فلا تكاد تخلو حاضرة من حواضر المغرب الأوسط أو منطقة من مناطقه من أبنائها الذين تشوفوا إلى الرحلة شرقا لتحقيق مآربهم المتعدّدة. كما تتباين مسالك وممرات العبور نحو المقاصد انطلاقا من كل منطقة أو حاضرة وتتعدّد ؛ تبعا لطبيعة الاهتمام الرحلاتي ولون المآرب ، ومن ذلك على سبيل المثال ، المسلك الذي ينهجه بعض أهل تلمسان انطلاقا منها ومرورا بالجزائر فبجاية ثمّ قسنطينة ، فبونة ، ومن ثمّ نحو تونس ، فطرابلس وبرقة.

ونلمح الانتباه إلى أنّ هذه الوجهة ، ما كانت مطلبا لذاتها فحسب من قبل رواد علم بالمغرب الأوسط نظرا لما تزخر به حواضرها من مقومات معرفية وما تحوزه من امكانات علمية ، وإنما مثّلت أيضا محطة رئيسة ومسلكا أساسيا ضمن مسار الخط الرابط بين المغرب الأوسط وبلاد المشرق بحواضرها المتعدّدة. أي أنّ هناك من أشبعت حواضرها رغبته الرحلاتية وأوفت بالغرض ، وهناك من لم يكتف بها حصّل بجغرافيتها ورام الاستزادة في غيرها فواصل طريقه نحو المشرق ، وهناك من مثّلت بالنسبة إليه طريقا فقط لبلوغ منشده بالمشرق سواء توقف أم لم يتوقف بأرضها ذهابا أو إيابا.

ولو تأملنا في المعطيات التي أبان عنها الجدول الأول ، للمسنا بأنّ هذه الوجهة كانت مقصدا فريدا لشخصيتين ضمن العينات التي أخضعناها للمفاحصة. ولشخصية واحدة جمعت بين هذه الوجهة ووجهة بلاد المغرب الأقصى ضمن عينات الجدول أيضا. ولشخصيتين تقلبت في مغارب العصر الوسيط والأندلس أو جامعة بين الوجهات الثلاث: إفريقية والمغرب الأقصى والأندلس. وكانت محطة عبور لعشر شخصيات قصدت حواضر المشرق.

2.2.1 الرحلة نحو المغرب الأقصى:

لم يعرف هذا الاتجاه الرحلاتي انتعاشا لافتا خلال العصر الوسيط مقارنة بما بات عليه الأمر خلال طلائع العهد العثماني وفترة القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين للدرس

10 المرجع نفسه ، ص21.

11 عمارة ، المرجع السابق ، ص113.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية

والإقامة والتجارة¹². وذلك أنّ الوجهة البارزة كما أشرنا إليه سلفا كانت إلى المشرق، وإلى الحواضر العلمية التي تقع بالطريق إليه. أمّا باتجاه الغرب فبالرغم من أنّ الوجهة مثّلت مقصد لشريحة من أهل المغرب الأوسط للاستزادة العلمية وتقوية المدارك، فإنّ مسارها كان يعرف تذبذبا ملحوظا، بسبب الاضطرابات السياسية التي تشهدها الساحة السياسية لبلاد الغرب الاسلامي بتلك الزاوية، ومن ذلك: الصراع العسكري الذي اصطبغت به علاقات بني حماد مع المرابطين خلال فترة حكم يوسف ابن تاشفين (454هـ-500هـ/1062-1106م)¹³، أو ضروب النزاع التي طغت على نسيج علاقات بني زيان مع الدولة الجارة بالجهة الغربية (المرينية).

ومن الطبيعي أنّ الوضع المضطرب الذي تفرزه حروب الحصار ومعاركه، تؤدّي إلى فقدان الأمن عبر أغلب المسالك الرئيسة والثانوية، فضلا عن استفحال عمل الحرابة وتنامي ضروب النهب والسلب والغصب بها، وانتشار أعمال اللصوصية عبر شرايين الحياة الاقتصادية والثقافية بها. بل إنّ الأمر قد ببعض القبائل ذات النجعة والحرب أن تُرغم التجار والمارة بها على أداء الإتاوة مقابل المرور بأراضيها. وفي هذا المنحى يطالعنا الرحالة العبدري بنصّ في غاية الأهمية؛ وذلك أنّه حين كان في طريق الرجعة من تلمسان إلى فاس مرورا بتازا، ذكر أنّه لمّا وقف على باب تلمسان نحو سنة 688هـ/1289م هو ومن معه صادفوا قافلة كبيرة خارجة إلى جهة الغرب زاد عددها عن الألف نسمة، فقال له قائل بأنّ لأصحابها رغبة في محاولة الخروج منذ نحو من ثلاثة أشهر ولم يتسنّ لهم ذلك إلا بخفارة على أداء خفارة، ففرح كثيرا حين أدركها من الغد بوجدة خصوصا مع كثرة عددها، لأنّه كان يأمل أن يجد الرفقة لمواصلته مسيره مع عصبته نحو مقصده، وقد أدرك ذلك¹⁴. كما ذكر البلوي أنّ القافلة التي كان من بين أفرادها قد تعرّضت في نقاط متفرقة من بلاد المغرب الأوسط لهجمات قطاع الطرق ذهابا وإيابا سنة 736هـ و740هـ¹⁵.

ومع أنّ طريق الرحلة العلمية إلى الجهة الغربية قد عرف انتعاشا ملحوظا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، ما كان يعني انحصار أعداد القاصدين للوجهة المشرقية، بل كما ألمحت إليه عديد الدراسات غدّ "القرن الثاني عشر هجري (18م) من أهم القرون التي أسهم فيها الجزائريون اسهاما واضحا في كتابة رحلاتهم بمختلف أنواعها مقارنة بالقرون الماضية، إلا أنّ هذه الإسهامات كانت قليلة الانتاج بالقياس بكتاب الرحلات المغاربة"¹⁶، وهذا راجع إلى

12 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص 385.

13 ابن خلدون، العبر، ج 6، ص 229.

14 العبدري محمد البلنسي، الرحلة المغربية، تقديم، سعد بوفلاحة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، 1428هـ / 2007م، ص 212.

15 انظر: ابن مرزوق محمد التلمساني، المناقب المرزوقية، تح، سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1429هـ / 2008، ص 45.

16 وقد أشار إلى هذا رائد الكتابة في التاريخ الثقافي للجزائر، الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله. راجع: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، ص 385.

عدم رجوع الرحالة إلى الجزائر ليكتب ملاحظاته ويدون رحلته¹⁷. وكانت الرحلة الحجازية أكثر وفرة نسبيا مقارنة بألوان الرحلة الأخرى ووجهاتها نحو الحواضر المشرقية¹⁸.

1.2.4 الرحلة إلى الأندلس:

ارتحل عدد معتبر من أهل المغرب الأوسط إلى الأندلس لوجه أداء الفرض الثقافي أو العلمي مع التنبيه إلى أن عدد المرتحلين ليس قارا عند حدٍ معين أو فترة معينة ، بل يعرف تفاوتاً حسب كل مرحلة ومنطقة ؛ يتقلص حيناً ويتسع في أحيان أخرى. بل إنه حين بلغت الاضطرابات بالعاصمة الزيانية تلمسان أوجها ؛ حين انتشر الخوف والقلق بين أظهر الرعية بسبب الحرب وضروب الصراع العسكري والتناحر لوجه المصلحة التوسعية خاصة بعدما اشتد الحصار المريني على تلمسان وأحاط بها إحاطة السوار بالمعصم بين سنتي (698 و706هـ) ، مثلت الأندلس ملاذاً آمناً لشريحة من علماء المنطقة ؛ حيث اضطروا للهجرة ومغادرة المناطق التي خيم على سمائها جو الاضطراب ، مُيَّنين وجوههم نحو المناطق الآمنة والبعيدة عن مواضع الاضطراب كالأندلس ، ولم يرجعوا إلى تلمسان إلا بعدما رُفِع عنها الحصار بعد مدّة من الزمن ناهزت ثمان سنوات على قول بعض المؤرخين¹⁹. فقد مدّ بصره -على سبيل المثال- محمد المكودي إلى غرناطة وقصدها حتى بنأى من تبعات الحصار الذي عصف بتلمسان وأمصارها. وعلى درب المكودي سار الشاعر أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني (ت708هـ/1309م) سنة 703هـ / 1304م قاصداً غرناطة أيضاً²⁰.

أما مع تقلص المساحة الإسلامية بالجزيرة الأندلسية تزامنا وتنامي الضغط الصليبي وتعاظم الخطر النصراني على المسلمين بها ، فقد انكمشت الرغبة في نفوس القاصدين لهذه الوجهة إلى هذه الجهة من قبل مغاربة العصر الوسيط بشكل عام وأهل الأوسط بشكل أخص ، وغذت بلاد المغرب هي المقصد ، والأكثر استقطاباً للنخب الأندلسية بحثاً عن فضاء آمن وجغرافية إسلامية تحتضنهم.

ومع ذلك ، ما غاب ذكر الأندلس عن الخطاب الرحلي لدى بعض الرحالة وأهل العلم ، خاصة من قبل الذين تمت جذورهم بصلة إلى الأصل الأندلسي ، ويشدّهم الحنين إلى مسقط

17 عجنالك يمينه ، أدب الرحالة الجزائريين إلى الحجاز خلال القرن 18 "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أنموذجاً" ، مجلة بحوث ، ع 11 ، ج 3 ، الجزائر ، ص 16.

18 المرجع نفسه ، ص 16.

19 ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مج 2 ، تح ، أبو الفداء عبد اله القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1407هـ/1987م ، ص 139. راجع كذلك: لطيفة بشاري: "علاقة بني عبد الواد ببني مرين بين القرنين 7-10هـ/13-16م" ، محلة أفكار وأفاق ، ع 3 ، جامعة الجزائر 2 ، الجزائر ، 2012 ، ص 63.

20 ابن مرزوق ، المناقب المَرْزُوقِيَّة ، ص 304 ، ابن مريم: المصدر السابق ، ص 125 ، أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ج 1 ، تقديم ، عبد الحميد الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا ، ص 245-247.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأسيسية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية²¹

رأسهم ومنبت عرقهم. ومن ذلك أنّ الأندلس كانت من الأماكن التي ذُكرت ضمن مادة رحلة ابن حمادوش، من غير أن يزورها؛ وإنما اعتمادا على تراث الأقدمين²¹.

2. مقومات انتعاش الحراك الرحلاتي بالمغرب الأوسط:

ولعلّ من أبرز مقومات هذا الانتعاش وركائزه، ما نسوقه في العرض الموالي:

- وقوع المغرب الأوسط في مركز بلاد المغرب؛ باعتباره نقطة وصل بين حواضر المغرب فيما بينها، وبينها وبين الحواضر المشرقية. فقد كانت -على سبيل المثال- تاهرت الرستمية، والقلعة وبجاية الحمادية، وتلمسان الزيانية محطات رئيسة ومفصلية لقوافل الحج والتجارة والعلم المرتحلة من الجهات الغربية للمغرب الأوسط والجنوبية له إلى حواضر المشرق أو من المشرق نحوها ذهابا وإيابا²².

- شغف أهل المغرب الأوسط إلى توسيع مشارب المعرفة وتنويع مواردها، والاطلاع على رصيد الآخر الثقافي، كان عونا لطلبة العلم على تكبد عناء ومشاق السفر والارتحال لوجه هذه الغاية النبيلة.

- تجذّر الفكر الرحلي في أرضية الخطاب الثقافي السائد بمجتمعات الغرب الإسلامي بشكل عام والمغرب الأوسط بصورة أخص؛ حيث ساد في المخيال العام والثقافة الشعبية: أنّ التحصيل المعرفي دون حركة رحلية لم يف بالغرض على أكمل وجه، وأنّ ملازمة الكمال الاجتهادي في طلب العلم والعلا لا يكون في صورته المثلى إلا إذا ساحت طالب العلم في الجغرافيا الحاضرة للمعرفة بمختلف حقولها ودروبها، وتنقل في فضاءاتها ومجالاتها الثابتة لمراكز العلم ومؤسساته، ما أمكنه ذلك ووجد إليه سبيلا.

- دور المؤسسات الثقافية المشرقية والمغاربية ومراكزها العلمية في استقطاب النخب وطلبة العلم والمعرفة للجلوس على كراسي العلم بمؤسساتها، والاحتكاك بأساتذتها ورواد المعرفة بها، ومن أشهرها: حواضر العلم بالحجاز والعراق والشام والحرمين والأزهر والبصرة والقدس، ومؤسساتها بالقرويين في المغرب الأقصى، وقرطبة بالأندلس، والزيتونة بتونس، ونحوها.

- دور السلطنة اللامع بجزائر الحقبين الوسيطة والعثمانية في تأمين الطرق والمسالك البرية والبحرية وخطوط المواصلات مع مختلف أقاليم العالم الإسلامي، وسعيها لفرض الأمن والاستقرار السياسي بالمجالات الخاضعة لسلطانها؛ مما سمح بنشاط وحيوية الحراك الرحلي

21 عجنالك، المرجع السابق، ص21.

22 بن معمر، المرجع السابق، ص281، مالكي سميرة ولباد سالم، أدب الرحلات الحجازية الجزائرية في القرن الثامن عشر الميلادي أنموذجا، مجلة لغة-كلام، مج7، ع2، مخبر اللغة والتواصل، جامعة غليزان، الجزائر، 2019، ص74-76.

وانتعاشه²³، واتساع حدود دائرة رواه، ومنتحليه سبيلا من سبل التحصيل العلمي وطريقا من طرق كسب المعرفة.

- ازدهار الحياة العلمية والأدبية بجزائر الفترتين الخاضعة للمدارسة²⁴، مثل هو الآخر حافزا وباعثا ودافعا قويا على الحركة والترحال لرصد المعرفة، والتمكين العلمي، والتواصل الحضاري، والتبادل الثقافي والفني.

- شعور التعلق ببلاد المشرق السائد في المخيال المجتمعي اعتبارا بما تحوزه من مقومات دينية وعلى رأسها أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة²⁵.

3. أثر الحراك الرحلاتي على الحياة الثقافية بجزائر العصر الوسيط والعهد العثماني:

يمكن رصد ذلك الأثر في ضوء ما ينطق به العرض الموالي:

- كان لعلماء الجزائر سواء في العصر الوسيط أو العثماني مساهمات معتبرة في إثراء الحركة الثقافية الإسلامية والإنسانية مشرقا ومغربا²⁶. وهو ما انعكسه بصمات النخب التي جابت مشارق الأرض ومغاربها وسارت في مناكبها في سبيل العلم والمعرفة استفادة وإفادة، وأخذا وعطاء. وهو ما يُحيلنا إلى تضافر الجهد العلمي لنخب الجزائر على امتداد تاريخها الإسلامي في دعم الحقل المعرفي والثقافي وإثرائه، والمساهمة في تغذيته في شتى العلوم والفنون، وكانت الرحلة العلمية آلية من آليات تحصيله، وسبيلا من سبل نشره وخدمته.

- أسهم التراث التأليفي والمنتوج الفكري والعلمي الذي أنتجه النشاط الرحلاتي بالمغرب الأوسط في الحقبة الوسيطة في تشكيل جسر ثقافي، ربطت حياة هذا العصر بالحياة الفكرية بجزائر العهد العثماني، ووصلت بين عهدين متعاقبين تباين سقفهما السياسي والسلطوي. ففي ضوء الحقل الثقافي والأرضية الحضارية والتراث الرحلي والمناخ الفكري الذي أسس له الجيل النخبوي بجزائر العصر الوسيط، انطلقت نخب الجزائر العثمانية وطلبتها تستثمر في كنوزه، وتبحث في تراثه. ومن مظاهر ذلك الإرث الرحلي على سبيل المثال لا الحصر:

23 لأمعة زكري، الرحلة العلمية بين الأندلس والدولة المرينية ودورها في تحقيق الصلات الثقافية خلال القرنين 7-9هـ / 13-15م، رسالة ماجستير، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر، 1431هـ / 2010م، ص 28.

24 دباح عائشة، الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات "رحلة الحسين الورثيلاني أنموذجا"، مجلة قضايا تاريخية، ع 8، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 1439هـ / 2017م، ص 50. علوي مصطفى، الرحلة العلمية بين المغرب الأوسط والأندلس بين القرنين الثالث والسادس الهجريين (رحلة القلصادي القرن التاسع الهجري نموذجا)، مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج 7، ع 1، جامعة الأغواط، الجزائر، 2021، ص 302.

25 انظر كذلك ما أوردته في هذا المضمهر: نميش سميرة، الرحلة العلمية وأثرها في تكوين شخصية العلماء أبو العباس المقرئ أنموذجا، مجلة البحوث التاريخية، مج 5، ع 1، الجزائر، 2021، ص 58-68.

26 خلوي شميصة، مساهمة علماء الجزائر العاصمة في إثراء أدب الرحلة رحلة عبد الرحمان الثعالبي (ت: 875هـ) أنموذجا، مجلة اللغة العربية، ع 30، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2018، ص 308.

**إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط
وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية-**

الرحالة	تاريخ الوفاة	اسم الرحلة
أبو القاسم التوجيبي التلمساني	(ت730هـ/1329م)	مستفاد الرحلة والاعترا ²⁷
محمد بن محمد المقرئ التلمساني	(ت759هـ/1357م)	رحلة المتبل ²⁸
ابن خلدون عبد الرحمن	(ت808هـ/1405م)	التعريف بابن خلدون شرقا وغربا ²⁹
ابن القنفذ القسنطيني	(ت810هـ/1407م)	أنس الفقير وعز الحقي ³⁰
أحمد المقرئ التلمساني الحفيد	(ت1041هـ/1631م)	رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق ³¹
أبو الفضل المشدالي البجائي	(ت864هـ)	الرحلة ³²
رحلة عبد الرحمن الثعالبي	(ت875هـ)	الرحلة ³³
البوني أحمد بن قاسم التميمي	(ت1139هـ)	الروضة الشهية في الرحلة الحجازية ³⁴
الحسين الورثيلاني	(ت1193هـ)	نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار.
ابن حمادوش الجزائري	(ت1197هـ/ 1782م)	لسان المقال في النبا عن النسب والحسب والحال ³⁵ .

27 سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص385.

28 سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص385.

29 ابن خلدون عبد الرحمن ، رحلة ابن خلدون ، عرض وتعليق ، محمد بن تاويت الطنجي ، حررها وقدم لها ، نوري الجراح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1425هـ/2004م.

30 ابن قنفذ القسنطيني ، أنسر الفقير وعز الحقي ، صححه محمد الفاسي ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، 1965.

31 لبصير سعاد ، التقاطع بين الأدب والتاريخ ضمن الرحلة الحجازية الجزائرية خلال العهد العثماني ، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الانسانية والاجتماعية ، مج13 ، ع1 ، جامعة الجلفة ، الجزائر ، 2021 ، ص879.

32 مداح نورالدين ، أبو الفضل محمد بن محمد المشدالي العلامة الموسوعي الرحالة ، مجلة الشهاب ، ع7 ، معهد العلوم الاسلامية ، جامعة الوادي ، الجزائر ، 1437هـ/2018م ، ص187.

33 الثعالبي عبد الرحمن ، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ، ويليهما رحلة عبد الرحمن الثعالبي ، تح ، محمد شايب شريف ، دار ابن جزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1426هـ/2005م ، ص12 وما بعدها.

34 سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص61.

35 مالكي ولباد ، المرجع السابق ، ص76.

البشير بوقاعدة

الرحلة	(ق12هـ/18م) ()	ابن مسائب التلمساني
الرحلة	(ق12هـ/18م) ()	الشاعر أحمد ابن التريكي
رحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب ³⁶ .	(ق12هـ/18م) ()	أحمد ابن عمار الجزائري التي تدعى
فتح الإله منته في التحدث بفضل ربي ونعمته ³⁷ .	(ت1238هـ/1823م)	أبوراس الناصري
الرحلة	(ت1232هـ/1817م)	المصعبي للشيخ ابراهيم بن بحمان المصعبي

- تسهم الرحلة في تحويل التجربة الانسانية إلى كتابة تاريخية ذات طابع تناسلي ، وفي المحافظة على الدينامية الثقافية ، وكذا في استمرارية الفعالية والانتعاش³⁸.

- ينطلق الخطاب الرحلي بمستوى رقي الصناعة الفكرية بكل مناحيها: لغوية ، أسلوبية ، فنية...³⁹.

- يكشف الخطاب الرحلي عن الكامن الفكري ، ويعبر عن الثقافة الاجتماعية ، والمعطى الاقتصادي ، والبعد الديني.

- وضع الخطاب الرحلي الأحداث التاريخية والقضايا الاجتماعية والدينية والعلمية في سياقاتها التاريخية والزمنية والجغرافية والبيئية ، وحدد إطارها القيمي والهوياتي ، ومرجعيتها الروحية والدينية ، وأبان عن منظومتها العرفية⁴⁰.

- استقدام مؤلفات من المشرق تخص العديد من العناوين الهامة في الحقل الثقافي ، ومن ثم التي تتعلق بالجانب التاريخي⁴¹.

36 سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص 224 ، لبصير ، التقاطع بين الأدب والتاريخ ، ص 879.

37 سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص 377.

38 لبصير سعاد ، التفاعل الثقافي والعلمي بين الرحالة الجزائريين ونظرائهم من بلاد المشرق خلال العهد العثماني ، مجلة قضايا تاريخية ، ع 8 ، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة ، الجزائر ، 1439هـ/2017م ، ص 95.

39 لبصير سعاد ، التفاعل الثقافي والعلمي ، ص 95.

40 ولقد فصلا أحد الباحثين تفصيلا جميلا في دور أدب الرحلة في التعبير عن العلاقة بين أدب الرحلة والاثنوغرافيا. وللتفصيل في ذلك. ينظر: رحمان علي ودرنوني سليم ، فصل المقال فيما بين الرحلة والاثنوغرافيا من اتصال ، مجلة التغير الاجتماعي ، ع 4 ، مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، ص 271-275.

41 عمارة ، المرجع السابق ، ص 114.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية

- أسهم الخطاب الرحلي إلى حدّ ما في توحيد النسق الفكري الجزائري المغاربي من جهة ، والجزائري الشرقي من جهة ثانية⁴² ، والجزائري على امتداد حقبة الزمنية من زاوية ثالثة. وهو ما يمكن أن نصطلح عليه بالثقافة بمجتمعات العالم الاسلامي المتزامنة ، وثقافة شعوب الوسط الجغرافي الواحد المتناسلة عبر العصور أو المتوارثة.

- كان للكراسي العلمية وحركة الجدل ومجالس المناظرات مساهمة فاعلة في انعاش الحياة الثقافية بجزائر العهدين الوسيط والعثماني ، وتنمية الحياة الفكرية بها فيهما⁴³.

- مثّل أدب الرحلة موسوعة شاملة لمختلف جوانب الحياة المتباينة للأمم الموزعة على البساط الجغرافي الذي امتطى صهوته الرحالة ، يرصد معطياته ، ويسجل انطباعاته عن واقع أجناسه وطبيعة معاشهم وتفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ويحصّد تجاربه وما عاشه وعاشه متنقلا بين أظهرهم. وبذلك يبني خطابا رحليا يفصح عن أدوار الرحالة ، ومفعوله ضمن نشاطه ، ومكانة نبضه فيه بصوته المفرد أو الجمع انطلاقا من مرجعيته الدينية والثقافية والجغرافية⁴⁴.

- يسهم النص الرحلي في تغذية حقول الكتابة والتدوين وفق خطاب يتماشى وطبيعة الغرض الرحلي وشخصية الرحالة الدينية والعلمية والثقافية. بحيث يترجم ذلك الفعل خلاصة الجهد الرحلي منسوج في مادة مكتوبة مدوّنة ترسم صورة تراجم التجارب الانسانية إلى مشاريع مكتوبة ونصوص مدونة ، تحاكي المناسبات الاجتماعية المرصودة ، والتظاهرات الثقافية المنتجة ، والمنفعة الاقتصادية المحصودة ، والجلسات العلمية المنعقدة. وبذلك فهي كما عبّرت عنه إحدى الباحثات: "تدون لم تدونه كتب التاريخ السياسي ومصادره بأسلوب يجمع بين الواقعة التاريخية وعنصر الإثارة والتشويق لذلك عدّ هذا الخطاب لبنة الدراسات التاريخية"⁴⁵.

- يرسم الخطاب الرحلي صور التضامن والتقاطع بين فنون العلوم الانسانية والاجتماعية ومواطن تقاطعاتها ، ويجمع بين القيم والأنساق الثقافية المتأصلة ضمن ذلك الخطاب ؛ خاصة بين التاريخ والأدب⁴⁶.

- يعكس الخطاب الرحلي التنوع المضموني المنفتح على الحقول المعرفية بمناحيها التاريخية والجغرافية والسياسية والدينية في صورتها التحليلية أو النقدية أو الاثنوغرافية ، ويقدم تصور

42 لبصير ، التفاعل الثقافي والعلمي ، ص 96.

43 لامعة ، المرجع السابق ، ص 70.

44 آجقو سامية ، الرحلة بين الواقع وفعل الكتابة ، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ، مج 21 ، ع 2 ، جامعة باتنة 1 ، الجزائر ، 2020 ، ص 176-179.

45 لبصير ، التقاطع بين الأدب والتاريخ ، ص 879.

46 المرجع نفسه ، ص 878.

البشيرة بقاعدة

شمولي لذلك المخزون الدلالي الذي يعكس هوية المرتحل العرقية والجغرافية والدينية والثقافية ، ويفصح عن غاياته ومراميه الارتحالية⁴⁷.

- يمثل النص الرحلي في بعض مناحيه شهادة حضارية حية ، التقطت صورها عدسة الرحالة ، تكمن قوتها في سوغها لتاريخ المجتمعات المغاربية والمشرقية في قالب متميز ؛ يجمع بين أحداث مساحة جغرافية واسعة ، ويثوي نسيجاً من النصوص المستوعبة لأخبار الأمم في مناحي حياتها المتعددة. فكأنه ذاكرة جماعية لا تعترف بالحدود الجغرافية ، وتلتئم تحت سقف ديانة واحدة ، وثقافة مشتركة ، وأسلوب حياتي متقارب يتناغم والثقافة السائدة والإيديولوجية المنتحلة.

- في الوقت الذي كانت السفارة والوفادة من بين أهداف الرحلة وأغراضها عند شريحة من النخب فقد كان الساسة ورجال البلاط يكلفونهم بمهام سياسية تندرج ضمن غاية توطيد النسيج العلائقي مع الدول الجارة والمعاصرة لها في نفس الخط الزمني وتبادل الرأي والمنفعة فيما بينهم ، لعب الخطاب الرحلي في بعض زواياه دور السفارة عبر الزمن ؛ بنقل خبرات جيل الحقبة السابقة وميراثها إلى الجيل الذي تلاه على نفس المجال أو إلى أبعد منه وأوسع. فكان بمثابة حلقة وصل ثقافي لمجتمعات متناصلة متعاقبة تنتمي إلى نفس الجغرافية وتفترض ذات المجال ، وآلية من آليات التبادل العلمي ، والتحاور الفكري ، والتقارب الثقافي.

- تسهم الرحلة العلمية في بناء شخصية الفرد الثقافية ، وتوسيع مداركه المعرفية وقدراته العلمية. كما تساعد على تحسين بنائه النفسي والاجتماعي ، وتنمي فيه قدرات الاكتشاف والمعرفة والتواصل ، وتقوده إلى مد جسور التواصل الثقافي مع الآخر وتبادل الخبرات والمعارف⁴⁸. كما تعدّ أحد المقاييس العلمية ومعاييرها لقياس مكانة العالم بين أترابه⁴⁹.

- تساهم الرحلة العلمية كذلك في تطعيم المكتبات المغرب أوسطية بأهميات الكتب والمصادر في شتى تخصصات المعرفة وحقول العلم.

- تمكّن من تحصيل الإجازة العلمية. حيث مثلت هذه الأخيرة أحد أسمى غايات طلبية العلم - بالمغرب الأوسط خاصة وبلاد المغرب عامة- في نشاطهم الرحلي ، من أجل تحصيل الإجازة في شتى العلوم الشرعية من حديث وفقه ، وكذا لتولي الوظائف والمهام الدينية كالافتاء والتدريس والتأليف والقضاء⁵⁰.

- المساهمة في التأسيس للفكر الأنثروبولوجي وإرساء دعائمه. وجدير التنويه في هذا الصدد بجهد الباحث "بلعربي" في مسعى إثبات دور الخطاب الرحلي الاسلامي في التنظير لهذا العلم ،

47 المرجع نفسه ، ص 878.

48 نميش ، المرجع السابق ، ص 64.

49 المرجع نفسه ، ص 64.

50 المرجع نفسه ، ص 64.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية

وإبراز السبق الاسلامي في التأسيس لكيانه ، والبصمة الاسلامية في تطويره⁵¹. فهذا العلم (الانثروبولوجيا) -كما يذهب إليه ذات الباحث- الذي ديدنه دراسة الانسان من خلال مفاحصة أوجه التباين والتشابه بينه وبين غيره من الكائنات من جهة ، وبينه وبين بني جنسه من جهة أخرى ، وُلد في رحم الفكر الاسلامي وترعرع بين أحضان اهتمامهم العلمي ؛ بما يجعله -حسبما يؤكد- علما عربيا اسلاميا أصيلا⁵². وحتى لا نحيد عن جادة صواب اشكالية بحثنا ، نشير بأنّ هذا الباحث ، انزوى إلى معاينة اللبسة الاسلامية في التأسيس لهذا العلم في ضوء المنتج العلمي الذي أفصح عنه الإرث الرحلي ؛ استنادا إلى بنيته الفكرية ، وخطابه الرحلي ، وثماره المعرفية ؛ فقد كشف هذا المنتج بشتى بُناه الفكرية عن العديد من الحقائق عن طبيعة المجتمعات التي زارتها النخب المرحلة خلال العهد الوسيط والمناخات الفكرية التي طافوا بمجالها واستأنسوا بمجالسها ، وأنماط حياتها ، وسبل معاشها ، وآليات تفكيرها ، وسماتها الثقافية والحضارية ، ونحوها. وهو ما يشي بمكانة هذا الصنف المصدري (كتب الرحلة) ضمن الأصول العلمية التي شكّلت "الملاحم النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا"⁵³. ويعتبر الفكر الخلدوني الذي تنطق به مادة مقدمة كتابه العبر أو رحلته شرقا وغربا ، أحد الإرهاصات المبتينة لإسهام المغاربة في خدمة علم الأنثروبولوجيا ، باعتبارها من المحاولات الجادة لتفسير الأنظمة الاجتماعية والثقافية ، ومعالجة العلاقة القائمة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية ، وموقع تباين البشر في اللون والأمزجة النفسية والصفات الجسمية والخُلُق في التأثير على الفكر والسلوك والنمط المعيشي⁵⁴ ، وتحديد المستوى الحضاري ، ومكانة البيئة الجغرافية والفكرية والثقافية في صناعة الفارق الحضاري ومستويات التطور السياسي⁵⁵. وباعتبار فكره كذلك من الجهود التي أسست لمنهج دراسة المجتمعات البشرية ، والدورة الحضارية التي تمر بها الأجيال وتعيشها الانسانية⁵⁶.

- كانت الرحلة العلمية بمختلف أنواعها مدرسة ثقافية ، لعبت دورها المحوري في الحياة المجتمعية من خلال بنا الفكر الانساني وتطويره ، وإثراء الحقل الثقافي بشتى فنون المعرفة⁵⁷.

51 بلعربي خالد ، الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين ، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ، ع 12 ، جامعة الوادي ، الجزائر ، ص181.

52 المرجع نفسه ، ص183.

53 المرجع نفسه ، ص183.

54 ابن خلدون عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ضبطه ، خليل شحادة ، راجعه ، سهيل زكار ، ج 1 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1421هـ / 2000م ، ص104.

55 بلعربي ، الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين ، ص183.

56 ابن خلدون ، العبر ، ج 1 ، ص104.

57 عجنالك ، المرجع السابق ، ص13-15.

4. نقاط التماس الرحلاتي بالجزائر بين العهدين الوسيط والعثماني:

حتى تتجلى مرامينا من معالجة هذه المحطة البحثية ، نعتقد أنّ مناقشة النقاط البحثية الموالية من شأنه أن يفي بالغرض المنشود:

- اتساع الرحلة بالمغرب الأوسط خلال القرون التي سبقت الوجود العثماني بالجزائر خاصة القرنين السابع والثامن الهجريين (13 و14م)⁵⁸؛ بما يحيل إلى أنّ المخيال الجمعي خلال تلك الفترة يؤمن بثقافة الرحلة ، ويشي بأنّها من القناعات التي ظلّت راسخة في أذهان ساكنة الجزائر حتى طلائع العهد العثماني وما والاها. وإنّها من الموارث التي ورثوها من أجدادهم ، والعادات والتقاليد التي دأبوا عليها ، والقذوة التي حافظوا عليها في منهج في تحصيل العلم ، وبالأخص وجهة المشرق التي ظلّت الأنظار مشدودة إليها خلال الحقبين ، كيف لا وبها مهبط الوحي وأرض الحرمين ، وساحة الإشعاع العلمي لاسيما علوم الشرع ، ومهد الحضارة الاسلامية⁵⁹.

- مثل المشرق بما يحتويه من أماكن مقدسة وفي طليعتها أرض الحرمين ، وما يعكسه من رمزية دينية في ذهنية المسلم وبشكل أساس لأداء فريضة الحج ، مقصدا لا تنفك عنه الأنظار للزيارة الواجبة في حق من استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا تفتقر القلوب تهافت لأداء الفرض ما دام مرتبطا بحياة المسلم الدينية وبالغاية من وجوده على وجه البسيطة. وبالتالي شكّل هذا المقصد المحوري في حياة الفرد الدينية قاسما مشتركا بين النسيج الاجتماعي بالجزائر عبر حقبه الزمنية المتعاقبة وفتراته الاسلامية المتتالية. ومن ثمّ ، ما كانت حياة ذلك الحراك الرحلاتي الذي شهده المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ونشاطه المتناسل على مداره لتتوقف في العصور الموالية بداية بعصر الوجود العثماني في الجزائر ، ولا لتخفت شمس تلك الرغبة والحرص على ذلك المقصد مهما تالت الدهور ، وتعاقبت الأزمنة ، ما دام الأمر يتعلق بواجب مقدس يكتسي صفة التراثية والتجدد في الآن نفسه.

- انطلاقا من أنّ مقصد الرحلة إلى المشرق طلبا للسند العالي كان غاية المني لكل محدث ومجتهد في علم الرواية ومهتم بجمع وتحقيق ودراسة نصوص الأحاديث النبوية ورواياتها ؛ من خلال الاجتهاد في البحث عن الطرق الصحيحة التي تقرّبهم إليه ؛ بمختلف مراتبه سواء القرب من نسل بيت النبوة أو مشاهير الأئمة أو مشاهير الكتب الحديثية⁶⁰ ، فقد شكّل لا محالة مادة غراء قوية حافظت على مسار تواصل هذه الرغبة بين مجتمعات الجزائر عبر عصورها الاسلامية وحقبها المتعاقبة بداية من جزائر العصر الوسيط فجزائر العهد العثماني وحتى وما والاها ، وماء الحياة لتعيش هذه الرغبة في نفوسهم ، ولا تذبل أوراق نباتها. كما إنّ احتكاك أهل المغرب الأوسط بنخب المشرق والمغرب الاسلامي ، فضلا عن كونه أسهم في بناء قاعدة علمية متينة ، لعب دوره الفاعل في اطلاعهم على ثقافات المجتمعات الاسلامية في شتى المناطق التي

58 الناجي ، المرجع السابق ، ص05.

59 المرجع نفسه ، ص19.

60 المرجع نفسه ، ص21.

إرهاصات الحراك الرحلاني بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية

زاروها ؛ ذلك أنه من أدبيات الرحلة في المغرب الأوسط بشكل خاص وأهل المغرب بشكل عام: تعريجهم في رحلاتهم إلى الحج على بلاد الشام والعراق لها تحتضنه من معالم لها رمزية تاريخية ودينية كزيارة بيت المقدس أولى القبلتين وثاني الحرمين ، والمسجد الأموي بدمشق ، ونحوها⁶¹.

- البعد الاقتصادي هو الآخر ، مثل حافزا وعاملا مساعدا على إنماء رغبة الرحلة في النفس البشرية ، سعيا وراء الرزق ، وطلبا للكسب والمعاش. واستنادا إلى كون هذا المعطى حيوي في منظومة المقاصد الرحلانية ، لم يتخلف كل من وجد إلى الرحلة سبيلا لنيل مراده وملامسة مبتغاه.

- لعب انفساح المجال الجغرافي أمام المجتمع الجزائري وانبساطه بين أيديهم نحو المشرق دورا محوريا في حيوية الرحلة وانتعاشها ؛ فلا عوائق ولا حواجز تحول دون مقصدهم إلى المشرق ولا حدود سياسية تفصلهم عنه ، سواء خلال فترة العصر الوسيط⁶² ، أو خلال العهد العثماني ؛ أين كان الرحالة ينطلق من الجزائر إلى أرض المشرق لا يغادر سقف السلطة العثمانية ، ولا تغيب عنه عين سيادتها ، ولا يحتاج إلى جواز سفر أو رخصة ليجوب المجالات التي ينشدها.

- اتساع التأليف بالمغرب الأوسط في الحقبة الوسيطة بشكل لافت خاصة خلال القرنين الذين سبقا الوجود العثماني بأرض الجزائر حتى أضحي -كما عبّر عنه أحد الباحثين- عادة جارية ، ومن أبرز مظاهر ذلك المنتج: مصنفات التراجم والسير والطبقات والمعاجم والبرامج والفهارس⁶³. وبذلك مثّلت مادة هذه المصنفات باعتبارها من المصادر الناطقة بميراث الأجداد الفكري والثقافي والحضاري وسجلا يحفظ تاريخ بلاد المشرق ومختلف المناطق والبلدان التي زارها رحالة المغرب الأوسط ودوّنوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم⁶⁴ وأوصافهم لمجالس العلم التي ارتادوها والمناقشات التي دارت رحاها بينهم وبين العلماء الذين احتكوا بهم وغير ذلك مما سمعوه ودونوه من أخبارها ، إرصاصا علميا متينا اعتمدت عليه النخب الجزائرية في العهد العثماني في بناء منتوجها العلمي والفكري ، واستعانّت بها لتطعيم مادته. كما مثّل ذاكرتها الجماعية وتراثها الرحلي الأصيل. ويُستشف من ذلك مكانة ذلك الحراك الثقافي في صناعة الشخصية الفكرية للطبقة العالمية والمفكرة في العصر الموالي ، وموقعها في بلورة توجهاتها العلمية والفكرية ، وإسهامها في تطور الدرس العلمي بشتى تخصصاته ؛ سواء الدرس الفقهي أو الحديثي أو التاريخي أو العقلي.

61 المرجع نفسه ، ص18.

62 آجقو ، المرجع السابق ، ص173.

63 الناجي ، المرجع السابق ، ص05.

64 راجع كذلك ما أورده: ميسوم مولود ، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس أنموذجا ، مجلة جسور المعرفة ، مج5 ، ع4 ، جامعة الشلف ، الجزائر ، 2019 ، ص216.

البشير بقاعدة

- تجلّت شخصية المغرب الأوسط العلمية والثقافية خلال القرن الخامس الهجري وما بعده بشكل أقوى وأبرز من ذي قبل. وهو ما يعكسه الرصيد العلمي والإنتاج المعرفي الذي أنتجه أهله ونُخبه العلمية في مختلف التخصصات وشتى الحقول المعرفية، والمدارس العلمية والفقهية التي أفصحت عن نهضة علمية بالمغرب الأوسط تعكس جهود أهل المنطقة، ولا تنفصم عن النهضة التي باتت عليها بلاد المغرب بشكل عام.

- حافظت العديد من الأسر وبيوتات العلم بجزائر العهد العثماني حرصها واجتهادها في خدمة العلم والمعرفة اقتداءً بأسلافها وجذورها العائلية الممتدة إلى العصر الوسيط؛ بما يشي بتعاقد الجهد العلمي والفعل الثقافي بين الأجداد، والأبناء والأحفاد في بناء حضارة الجزائر. وبإثراء المعرفة الإنسانية وحفظ الثقافة الإسلامية ونشرها وتوسيعها. وينطق في ذات الوقت بمواصلة الجيل اللاحق لمسيرة العطاء العلمي والثقافي الذي شيد أساسه الجيل السابق، وسيرهم على نفس الخطى، وذات المنهج في خدمة الحضارة الإسلامية والإنسانية، وتأميننا في نفس الآن لميراث أجدادها الثقافي والحضاري. ومن هذه البيوتات العلمية التي مثّلت ذلك الامتداد الثقافي، وكانت حاضرة بعلمائها في حقول العلم والمعرفة بشتى فنونها وتخصصاتها، على مدار المسافة الزمنية المؤطرة للعهدين الوسيط والعثماني بالجزائر: الأسرة الفكونية التي من أبنائها عبد الكريم الفكون القسنطيني (ت1073هـ/1663م) صاحب كتاب "منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية"⁶⁵. وأسرة المقرّي التي من بين أبرز ما أنجبت من علماء أحمد المقرّي الحفيد (ت1041هـ/1631)⁶⁶ صاحب الكتاب الشهير بنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب⁶⁷. كما حافظت معظم حواضر جزائر العصر الوسيط على إشعاعها العلمي وبريقها الثقافي ولمعانها المعرفي خلال العهد العثماني على غرار بجاية، قسنطينة، الجزائر، مازونة، وتلمسان⁶⁸، مُشكّلة قواعد علمية تستقطب النخب وطلبة العلم، ومراكز للتواصل والثقاف، أسهمت في نقل المعرفة عبر الزمن وإحياء التراث على مدار عصوره.

65 سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص519، بوخلوة حسين، عبد الكريم الفكون القسنطيني حياته وآثاره (988-1073هـ/1580-1663م)، رسالة ماجستير، جامعة وهران الجزائر، 2009، ص43.

66 وجده هو: أبو عبد الله محمد المقرّي المتوفى سنة 759 للهجرة. راجع بشأنه: ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعلبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه، الجزائر، 1336هـ/1908م، أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص212، أبو الأجفان محمد بن الهادي، الامام أبو عبد الله محمد المقرّي التلمساني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1988، ص17.

67 راجع بشأنه: المقرّي أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، احسان عباس، مج1، دار صادر، بيروت، 1388هـ/1968م.

68 وهو ما استوقف الباحثة "دباح" في مسار دراستها لأثر النص الرحلي على الحياة الثقافية بالجزائر. وللوقوف على تفاصيل ما توصلت إليه. ينظر: دباح، المرجع السابق، ص48.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية⁶⁹

- لم يمثّل التراث الرحلي بشتى كنوزه وفي مختلف الفنون والعلوم بجزائر العصر الوسيط وسيلة من وسائل الاتصال الحضاري مع الآخر واكتشافه⁶⁹ خاصة ضمن المجال الاسلامي وسبيلا من سبل المثاقفة معه عبر قناة الرحلة فحسب ، بل مثّل كذلك جسرا توصليا متينا بين ضفتي العصرين الوسيط والعثماني بالجزائر ، وآلية من آليات التلاقح العلمي والفكري بين جبلي العصرين ، ومظهرا من مظاهر التعاون لبناء حضارة الجزائر وحفظ هويتها الثقافية ، والدينية ، والاجتماعية ، والجغرافية.

خاتمة:

- على ضوء ما تمّ تناوله ضمن مادة هذه الدراسة ، يمكن استخلاص النتائج التالية:
- يعكس النشاط الرحلاتي الذي شهدته الجزائر خلال حقبتها الوسيطة والعثمانية الهوية الدينية والثقافية والفكرية لمجتمعاتها ، وترسم ملامح تكاملية المشهد الثقافي بمختلف مكوناته على مدار العصرين ، وتنطق بحياة النهضة الفكرية التي عاشت على مداريهما على بساطها.
 - مثّل الحرص على أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة قاسما مشتركا أو محركا رئيسا للفرد المسلم على الارتحال والانتقال إلى بلاد الحجاز ومكة المكرمة. ومشقة هذه الرحلة هي المشقة التي يتجشم كل المسلمين عناءها دون كلّ أو ملل ويتشوقون للقيام بها ما دام الأمر يتعلق بأداء الفرض.
 - انطلاق الفعل الرحلاتي في الوسط المجتمعي بجزائر العصرين الوسيطي والعثماني من مرجعية غائية واحدة مشتركة في الغالب الأعم ، تعكس في ناحية: مكانة الحركة في مسعى التحصيل العلمي والاقتصادي ، وقدسية المقصد في منحى أداء الفرض الديني.
 - يعكس الخطاب الرحلي بجزائر الحقبتين الوسيطة والعثمانية الإرث الحضاري والتاريخي لمجتمعاتها ، ويرسم ملامح هويتها الدينية والثقافية.
 - أسّس التراكم التاريخي للمادة المعرفية التي أنتجها النص الرحلي وأفصح عنها خطابه لثقافة شعبية مفادها: أنّ المعرفة تؤخذ أنّ كانت ، ويُرتحل لوجهها مهما بُعد موطنها ، وتُصرف في سبيلها النفوس مهما ثقلت مشاقها وأعباءها ، وفرضته مطالبها وأغراضها.

69 للوقوف على تفاصيل مستفيضة بشأن أهمية أدب الرحلة في الحياة الثقافية والحضارية ، ينظر: سديرة سهام ، أدب الرحلة الماهية ، البنية والشكل ، مجلة دراسات معاصرة ، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة ، المركز الجامعي تسمسليت ، الجزائر ، 2018 ، ص335-337 ، لبصير سعاد ، الرحلة الحجازية في العهد العثماني (1518-1830) مصدر أساسي للكشف عن الحدث التاريخي الاجتماعي الآفات الاجتماعية نموذجا ، مجلة التراث ، مج8 ، ع1 ، جامعة زيان عاشور الجلفة ، الجزائر ، 2018 ، ص199-205 ، بن ناهض عبد الكريم ، التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب العربي من خلال الرحلة العياشية (ماء الموائد) ، مجلة الذاكرة ، ع10 ، مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ، الجزائر ، 2018 ، ص57.

البشيرة بقاعدة

- مثل الخطاب الرحلي عينة من العينات التي أفصحت عن تكاملية الفعل الثقافي العلمي بين فروع تخصصاته وأجناسه ؛ حيث تجاوز القطيعة التي جسدتها خطابات أصحاب بعض الفنون الأدبية والعلمية في إنتاج المعرفة ، وأبان عن تجربة جامعة بين مواضيع وحقول معرفية متولدة: تاريخية ، جغرافية ، ودينية ، واجتماعية ، وتراجمية ، وبيوغرافية وإثنوغرافية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، مج 2 ، تح ، أبو الفداء عبد اله القاضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 1407هـ/1987م.
2. ابن خلدون عبد الرحمن ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، ضبطه ، خليل شحادة ، راجعه ، سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1421هـ/2000م.
3. ابن خلدون عبد الرحمن ، رحلة ابن خلدون ، عرض وتعليق ، محمد بن تاويت الطنجي ، حررها وقدم لها ، نوري الجراح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1425هـ/2004م.
4. ابن قنفذ القسنطيني ، أنس الفقير وعز الحقيير ، صححه محمد الفاسي ، المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، 1965.
5. ابن سعد التلمساني ، روضة النسر في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين ، مراجعة وتحقيق ، يحي بوعزيز ، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع ، الأبيار ، الجزائر ، ط 1 ، 2002.
6. ابن مرزوق التلمساني ، المناقب المرزوقية ، تح ، سلوى الزاهري ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1429هـ/2008.
7. ابن مرزوق ، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ، دراسة وتحقيق ، ماريا بيخوس يغيرا ، تقديم ، محمد بوعباد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981.
8. ابن مرزوق محمد التلمساني ، المناقب المرزوقية ، تح ، سلوى الزاهري ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1429هـ/2008.
9. ابن مريم التلمساني ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، المطبعة الثعلبية لصاحبها أحمد بن مراد التركي وأخيه ، الجزائر ، 1336هـ/1908م.
10. التنبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، ج 1 ، تقديم ، عبد الحميد الهرامة ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ليبيا.
11. التنسي عبد الله ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان ، تح ، محمود بوعباد ، موفم للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2011.
12. الثعلبي عبد الرحمن ، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ، ويلها رحلة عبد الرحمن الثعلبي ، تح ، محمد شايب شريف ، دار ابن جزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 1426هـ/2005م.
13. العبدري محمد البلنسي ، الرحلة المغربية ، تقديم ، سعد بوفلاقة ، منشورات بونة للبحوث والدراسات ، عنابة ، الجزائر ، 1428هـ/2007م.
14. الغبريني أبو العباس أحمد ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تح ، عادل نويهض ، ط 2 ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1979.

إرهاصات الحراك الرحلاتي بجزائر العهد العثماني - رؤية تأصيلية لثقافة الرحلة بالعصر الوسيط

وتداعياتها على الحقبة التاريخية الموالية

15. المقرئ أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح، إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1388هـ / 1968م.

ثانيا: المراجع:

16. ابن معمر محمد، رحلات الحج من المغرب الأوسط إلى مكة المكرمة، مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد 18، العدد الأول، وهران، الجزائر، 1439هـ / 2017م.
17. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998.
18. أبو الأجفان محمد بن الهادي، الامام أبو عبد الله محمد المقرئ التلمساني، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1988.
19. آجقو سامية، الرحلة بين الواقع وفعل الكتابة، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، مج21، ع2، جامعة باتنة1، الجزائر، 2020.
20. الناجي لمين، رحلات علماء المغربين الأقصى والأوسط الملكية وآثارها العلمية من خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1437هـ / 2016م.
21. بلعربي خالد، الفكر الأنثروبولوجي في كتابات الرحالة المسلمين، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، ع12، جامعة الوادي، الجزائر.
22. بوخلوة حسين، عبد الكريم الفكون القسنطيني حياته وآثاره (988-1073هـ / 1580-1663م)، رسالة ماجستير، جامعة وهران الجزائر، 2009.
23. بوسلامة محمد، هجرة الجزائريين إلى بلاد المشرق في العهد العثماني "1518-1830"، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج2، ع1، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، 2019.
24. حميداتو علي، أدب الرحلة من السيرة الذاتية إلى المتخيل قراءة في رحلة ابن حمادوش، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع14، ج1، جامعة الوادي، الجزائر، 2018.
25. خلوي شميصة، مساهمة علماء الجزائر العاصمة في إثراء أدب الرحلة رحلة عبد الرحمان الثعالبي (ت:875هـ) أنموذجا، مجلة اللغة العربية، ع30، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2018.
26. دباح عائشة، الرحلة العلمية وتأثيرها على الوضع الثقافي في الجزائر في عهد الدايات "رحلة الحسين الورثياني أنموذجا"، مجلة قضايا تاريخية، ع8، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 1439هـ / 2017م.
27. رحمان علي ودرنوني سليم، فصل المقال فيما بين الرحلة والانتوغرافيا من اتصال، مجلة التغير الاجتماعي، ع4، مخبر التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر، جامعة بسكرة، الجزائر.
28. عجنالك يمينة، أدب الرحالة الجزائريين إلى الحجاز خلال القرن 18 "نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب لابن عمار أنموذجا"، مجلة بحوث، ع11، ج3، الجزائر.
29. علوي مصطفى، الرحلة العلمية بين المغرب الأوسط والأندلس بين القرنين الثالث والسادس الهجريين (رحلة القلصادي القرن التاسع الهجري نموذجا)، مجلة الساورة للدراسات الانسانية والاجتماعية، مج7، ع1، جامعة الأغواط، الجزائر، 2021.
30. سديرة سهام، أدب الرحلة الماهية، البنية والشكل، مجلة دراسات معاصرة، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، المركز الجامعي تسمسليت، الجزائر، 2018.

البشير بوقاعة

31. بن ناهض عبد الكريم ، التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب العربي من خلال الرحلة العياشية (ماء الموائد)، مجلة الذاكرة ، ع 10 ، مخبر التراث اللغوي والأدبي في الجنوب الشرقي الجزائري ، جامعة قاصدي مرباح ، ورقلة ، الجزائر ، 2018.
32. نميش سميرة ، الرحلة العلمية وأثرها في تكوين شخصية العلماء أبو العباس المقرئ أنموذجا ، مجلة البحوث التاريخية ، مج 5 ، ع 1 ، الجزائر ، 2021.
33. لبصير سعاد ، التقاطع بين الأدب والتاريخ ضمن الرحلة الحجازية الجزائرية خلال العهد العثماني ، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الانسانية والاجتماعية ، مج 13 ، ع 1 ، جامعة الجلفة ، الجزائر ، 2021.
34. لبصير سعاد ، الرحلة الحجازية في العهد العثماني (1518-1830) مصدر أساسي للكشف عن الحدث التاريخي الاجتماعي الآفات الاجتماعية نموذجا ، مجلة التراث ، مج 8 ، ع 1 ، جامعة زيان عاشور الجلفة ، الجزائر ، 2018.
35. لبصير سعاد ، التفاعل الثقافي والعلمي بين الرحالة الجزائريين ونظرائهم من بلاد المشرق خلال العهد العثماني ، مجلة قضايا تاريخية ، ع 8 ، المدرسة العليا للأساتذة ، بوزريعة ، الجزائر ، 1439 هـ / 2017 م.
36. لامعة زكري ، الرحلة العلمية بين الأندلس والدولة المرينية ودورها في تحقيق الصلات الثقافية خلال القرنين 7-9 هـ / 13-15 م ، رسالة ماجستير ، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان ، الجزائر ، 1431 هـ / 2010 م.
37. لطيفة بشاري: "علاقة بني عبد الواد ببني مرين بين القرنين 7-10 هـ / 13-16 م" ، مجلة أفكار وأفاق ، ع 3 ، جامعة الجزائر 2 ، الجزائر ، 2012.
38. مداح نورالدين ، أبو الفضل محمد بن محمد المشدالي العلامة الموسوعي الرحالة ، مجلة الشهاب ، ع 7 ، معهد العلوم الاسلامية ، جامعة الوادي ، الجزائر ، 1437 هـ / 2018 م.
39. مالكي سميرة ولباد سالم ، أدب الرحلات الحجازية الجزائرية في القرن الثامن عشر الميلادي أنموذجا ، مجلة لغة-كلام ، مج 7 ، ع 2 ، مخبر اللغة والتواصل ، جامعة غليزان ، الجزائر ، 2019.
40. ميسوم مولود ، أدب الرحلة في الجزائر في القرن التاسع عشر رحلة محمد بن علي السنوسي إلى فاس أنموذجا ، مجلة جسور المعرفة ، مج 5 ، ع 4 ، جامعة الشلف ، الجزائر ، 2019.